مضاعفات حتمية لوضعية قارة

قمري البشير

---

١ ـ درجة ما تحت الصفر

ما بين المحيط الابيض والمحيط الاسود ، كان الطريق البني يبتلع البشر الصغار، يجرجرون اقدامهم المتعبة بالطين وروث الدواب . فوق الدراجات المهجنة انهم يانعون الحليب البسطاء نسيجهم النفاسهم المحترقة في نابع مستمر . يحترق عندما تلمس طبقة الهواء الراكد . بعد قليل ، سيفتح البوابة ، وتحف الاشجار العارية واحزام الورق الذابلة لاستقبالهم ، تتطاير متصطدم بوجوههم وصدورهم ، ثم تسقط تحت العجلات . لقد ساروا طيلة الفجر . اطلقتهم احواض القصدير المنتشرة خلف الاسوار التاريخية . عندما وصلوا ، تفرقوا ، كل الى حيه الملعون لتوزيع الخيرات على السكان المتخمين ، وبدأوا بالصياح : (الحليب.. الصلاة على محمد الحبيب .. الحليب) . ثم ضاعوا في الشوارع الخالية . سياط الاشعة الوقحة تفضح تجاعيد وجوههم المتكمشة : (هم حلبوا بقراتهم في الليل . هم جمعوا كميات الحليب ، وضعوها في البراميل وحملوها خلفهم فوق الدراجات وانحدروا : فعلوا كل شيء من أجل الناس الكبار) . بدأت العمارات الداكنة تفرز الخادمات المنتفخات من شدة البرد وزمهرير المطابخ البورجوازية ، حاملات للقوارير الزجاجية لملئها من أجل فطور « ساداتهن ولالاتهن يصعدن بعد ذلك بصناديق القمامة المتنة بعد أن مر عمال التنظيف في عز الليل وأفرغوها في الشاحنات. خرجت خناثة المنتفخة من الباب الحديدي، تشد بيدها اليمنى ، المنديل على رأسها وباليد الاخرى الزجاجة الشرهة (أين اليد الثالثة والرابعة والخامسة ؟ تقول لها سيدتها عندما تغرق في الصابون والجافيل وخرق الاطفال الصفراء) . احست كأنها دب قطبي يحتاج الى البرد والماء ليعيش أكثر . عندما لم تواجهها سيول الامطار الصباحية . بدأت عيناها تمطران . هي تحب المطر والبرودة ، لانها تعيش وسط الماء ضفدعة تسبح في العرق والماء والاوساخ : ماء الغسيل والاواني . تقدمت نحو البائع وانتظرت ليسند دراجته الى جدار الحديقة المغتربة فوق الاسفلت . أعطاها حصة المستهلكين الساكنين بفيلا (لأتوبليس) ثم عادت من حيث أتت في صمت .

بحليبها ودموعها وبروده عندها . احكمت اغلاق الزجاجة حتى لا تتسرب الميكروبات اليها كما اوصوها سابقا . عندما التزمت ببيع شبابها وعضلاتها للناس الكبار ، كان وجهها الممنوع من الابتسام ، يسكن كل القطع البلورية في الباب . وكان جهازها العصبي يسجل ارتفاعا في درجات الاحتراق والغضب، وكانت عاطفتها قد بلغت درجة الالف تحت الصفر : محكوم عليها بالانحدار في كل شيء : الجسد والعاقل والوضعية الانسانية .

2 ـ النظر بعين الثعلب :

عندما ابتلعتها الفيلا، كانت عيون البائعين تتابعها ، تدرس في وقاحة الخيط الرابط بين الفخذين والساقين : صارت حلوة في عيونهم ، تابعوا حركات عجزها المنتفخ ، تنهدوا في حرقة ، لانهم لا يمتلكون حواء نقية البشرة في الدوار . ابتلعوا كميات الريق المزوج بالدخان : فر البعض منهم الزواج ، وقرر البعض الآخر تسريح حواء من بينه ، وتبديلها بأخرى ان سمحت الظروف ، بينما عقد الآخرون العزم على الانفراد في مكان ما مع احدى الصور العارية وقطعة من الصابون . كيف لا ؟ وهم مي مقتبل العمر : ورثوا الشوارب والسحنة المحروقة ، وتوفر الهرمونات بكثرة . عندما ينهضون من نومهم في الفجر، غالبا ما يتركون بقعا نزجة من شدة الانفجار في الحلم والواقع . ينهضون دائما وهم يحلمون بتغيير لون الجدران والاثواب والايام والتاريخ ، انها الرتابة اقتعدت القرفصاء في كل ركن الحركة التي يكتنفها النشاط قليلة ، أولا : حركة الحلب والصر ، ثانيا : حركة الهضم والابتلاع ، ثالثا : حركة النوم فوق النساء . (حماد) كغيره من البائعين ، ينهض من نومه وينفخ عجلات دراجته ثم تبتلعه الحياة الصعبة ، عندما نهض هذا الفجر ، كانت حواسه وغرائزه في حالة استنفار . أطل بعينيه من تحت الغطاء الصوفي . ثم غادره ليفتح الباب المنخور ، وسرعان ما امتلات الغرفة باشعة هائمة على وجهها . خرج ثم غاص برأسه النحيل في الدلو الممتلأ بالماء البارد ، شرب وغسل وملا أذنيه وأفرغ أوساخه دفعة واحدة ثم اتجه صوب الاصطبل بقراته الخمسة تنظر اليه في برودة : لقد تعودت عليه ، يأتيها كل صباح ليسلبها ما تكوم في أضراعها من خيرات تحملها الى الناس الكبار . بالنسبة لها ، العملية جد بسيطة ، فهي لم ترفض أبدا مدهم بالحليب ، أما هو ، فالامر يختلف تمام الاختلاف : ان دماغه يسجل شيئا غير عادي . لقد بدأت اشارات مراهقة تريد نسف البناء الداخلي لعلبة التفكير ! من أجل من هذا النهوض الباكر طيلة عشر سنين ؟ منذ أن كان في الثالثة عشرة وهو يبيع الحليب ! خلف أباه الميت ذات مرة على درب الحياة الصعبة . حادثة اصطدام . اختلطت فيها عضلات أبيه وأطرفه بدواليب شاحنة فولفو كاسرة آخر ما قاله أبوه : (تزوج يا بني ، الاولاد زينة الدنيا) ! من أجل من هذا التعب المستمر ؟ مرت السنون الاولى وهو يزداد حجما وتفاؤلا بالحياة البسيطة ، وها هو الآن يتضاءل وينقص في

كل شيء ، أسرته نفقد باستمرار افرادها منذ ولادته : الحمى والجذري والموت المجردة وهو لا يعي ! عندما مكر هكذا ، قرر الزواج . غالها في حجل لعمه مي احدى الامسيات ، وكم تمنى ان يزوجه هذا الاخير من عنده ، لكن زوجته عاقر لا تحسن صنع الوحوش ! اجابه « سنبحث لك عن بنت تاس » ! هبط ذاك الصباح ، وسار نحو المدينه . بين الاكواخ الطينية وهي تصرخ من شدة اللذة (خاصني مرا.. خاصني مرا.. خاصني مرا).. شد البراميل خلفه (بسم الله) وضع الرجل اليمنى (يا رضات الوالدين) وضع الاخرى وحرك الدواسنين ! وحرك ! ماذا قال لك أبوك ؟ انها الحقيقة : لقد سمع صوت يناديه . أبوه ينتصب في ذاكرته (تزوج يا بني... تزوج يا بني) ! (حماد) كغيره من البائعين تجذبه السيقان الوردية : تحمقه الخادمات المتعبات . دائما يطارده وحش الشهوة ويحمله عاليا ثم يلقيه مي التراب على انفه . مرات عديدة ، سقط من فراشه على الارض البارده وهو يعانق وسادة . هذه المرة سيضع حدا لهذا الصراع الذي ملأ الشرايين والاوعية والدماغ . عندما ينظر الى (خناثة) يفقد هويته . وتتفجر الرغبة بالعرق ، وتتفجر الجبهة ، وتتفجر الاجهزة الدماغية. تقترب منه أحيانا ، فينسى أحيانا أنه يكب الحليب في القارورة الضيقه ، فيسيل على مربعات الرصيف . تمناها مرات عديدة الى جانبه فوق فراش محجوز في غرفة غير محددة الاقامة : قطعتان من اللحم باردتان ، عاريتان في لون البفتيك .. هل يناديها ويطلب منها بكل سهولة أن تردفه فوق الدراجة فيحملها كما فعل السندباد ؟ هل يغازلها ويفرغ في اذنيها عبارات التشنج كما فعل مع العذارى عند البئر الفروي ؟ سكنته الحيرة وسكنته الامل الجميل وكمية كبيرة من اليأس .

3 ـ صورة ناطقة لاهل الليبيدو

بعد تمام التسعة أشهر . وبعد اشواط النطفه والعلقة ، وقطع الحبل ، يخرج الوحش هادئا ، تضعه القابلة في الخرق المجموعة من دكاكين بيع الاثواب بالجملة . يمر العام الاول والثاني والثالث ، وتاتي سنة ابراهيم فيمتلأ صحن الدار بالراقصات والمغازين والاثواب المزركشة ، ويصيح كل من يحسن تقليد الديك . هكذا تتم عملية تهييء الوحش للدخول في مرحلة البحث عن حواء (حماد) خضع لنفس الترتيبات ، فكبر كاملا : له عينان كعيني الثعلب وأنفاس كانفاس أوديب وأحلام سيزيف . نظر الى حواء واحتال في كيفية التقاء رائحته برائحتها ، في حفلات العرس والختان والمواسم الوحشية درس بتمعن جغرافية الاجساد النسوية ، لكن دائما كانت حجرة سيزيف تقف أمامه منتصبة . استفزته كل العيون النائمة تحت الرموش القروية ، وكل الصدور المتلئة !

4 ـ نهاية ما لا نهاية له :

الاسم : حماد بن حمادي

السن : 23 سنة
الحرفة : بائع حايب للناس الكبار
الاوصاف الخاصة :
1 ـ انسان يمد سكان المدينة والفيلات الانيقة بكل شيء ولا تعطيه هي شيئا .
ب ـ انسان لا يريد موتا تحت عجلات الفولفو .
ج ـ انسان قرر أن «يعمل رأسه» .
اشارة عابرة على لسان المعني بالامر
معذرة أيها المتطفلون على وضعيتي الخاصة ـ القارة ان اخبرتكم أنني أحب خنافة المنتفخة من شدة البرد .

قمري بشير
الرباط 12 ـ 5 ـ 75

ترقبوا صدور الكتب التالية :

عطيل ، الخيل والبارود (احتفال مسرحي) عبد الكريم برشيد

Chants superposés

POEME

Mohamed Louakira

رقصة الرأس والوردة شعر عبد الله زريقة